مجلة جامعة الزيتونة الدولية للنشر العلمي
Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing
Issue N.36-Vol.2 / ISSN:2958-8537

العدد السادس والثلاثون (36)، المجلد الثاني
تاريخ 30 – 7 – 2025
(من ص 200 إلى ص213)

تجليات المكان ودوره في تشكيل الوعي لدى جبرا في سيرة البئر الأولى

The Manifestations of Place and Its Role in Forming the Awareness in Jabra in The Biography "The First Well

الدكتور معاذ عبدالله حامد إشتية
Moath Abedullah Hamed Eshtaiyeh
الأدب والنقد الحديث- كلية العلوم الإنسانية- جامعة الاستقلال -أريحا - فلسطين

الملخص

إن علاقة الإنسان بالمكان علاقة ذات بعد تأثري؛ فالمكان يسهم في تشكيل وعي الإنسان بوجوده، ويطبع فكره وهويته، وقد ذهب بعض النقاد مذهبا رأوا فيه أن الوقوف على البيئة والمكان الذي عاش فيه من شأنه أن يسهم في الكشف عن مكنونات أعماله الإبداعية.

وتعد السيرة الذاتية في بنيتها الأدبية فنا زمكانيا [1](**صالح، 1996م، 20**) لذا فإن استرجاع المكان فيها لا يعد استرجاعا عارضا، إنما يكون مبنيا على تأثير هذا المكان على المبدع، وإن سعي المبدع على الوقوف على معالم المكان الذي أصبح جزءا من طفولته وماضيه لهو دليل على المكانة التي ما زال يحملها المكان في نفسه.

وإن الوقوف على تجليات المكان في سيرة " البئر الأولى " للأديب والفنان جبرا إبراهيم جبرا يأتي في سياق أن هذه السيرة هي سيرة مكان في تشكيلها، وقد حاول جبرا أن يظهر تأثير أماكن الطفولة على نفسه، على الرغم من طول المسافة الزمنية التي فصلته عن هذه الأماكن، علما أنه كتب هذه السيرة سنة 1993م، وكان حينئذ يعيش في بغداد التي ارتبطت مرحلتها بسيرة أخرى جاءت تحمل عنوان " شارع الأميرات ".

وهكذا فإن الباحث في تجليات المكان في سيرة جبرا المذكورة يستطيع أن يرى بيت لحم في فترة العشرينات والثلاثينات من القرن الماضي، حيث تتجلى بأحيائها وشوارعها وكنسها وأديرتها وبيوتها وخششها، كما يستطيع أن يلمح القدس وبعض مداخلها وأبوابها. كل ذلك في سياق تحديد علاقته بهذه الأمكنة وأثرها على وعيه.

ولعل حضور بيت لحم في سيرته يتصل بشعوره بالامتياز، حيث يقول: "**إن بيت لحم التي تضم في حناياها مهد المسيح تجعل أبناءها يشعرون بالامتياز، إما بسبب ذلك، أو بسبب إيمان الآخرين به**".

كما أن حضور القدس ببعض مكوناتها وأحيائها هو حضور لمدينة ذات مكانة في نفسه، حيث لم تحل مكانها أية مدينة أخرى، فالقدس هي عنوان وطنه الذي ظل محفورا في ذاكرته، وقد عبر عن ذلك الأديب الروائي عبدالرحمن منيف في تقديمه لكتاب " البئر الأولى "، يقول: " **أن جبرا منذ أن وصل إلى العراق كان يقول بجهير الصوت أن العراق امتداد للوطن الذي يحبه ويؤمن به لكنه ليس بديلا عن فلسطين، أرض الزيتون** " (جبرا، 2007م، 8).[2]

الكلمات المفتاحية: تجليات المكان، تشكيل الوعي، سيرة البئر.

ABSTRACT

The relationship of man with the place is a relation having an influential dimension. For the place contributes in forming man's consciousness of his existence and imprints his thought and his identity. Some critics viewed that understanding the environment and the place in which he lived can contribute in disclosing the componets of his creative works.

The autobiography in its literary structure is considered as a time-place art[3]. Thus the retrieval of the place in it is not considered as an accidental retrieval , but rather it is built on the effect of this place on the creative person. The seeking by the creative person of understanding the landmarks of the place which had become a part of his childhood and his past is an evidence of the status which the place is still carrying in himself.

Understanding the manifestations of the place in the biography " The First Well' by the man of letters and artist Jabra Ibrahim Jabra comes in the context of the fact that this biography is a biography of place in its formation. Jabra attempted to show

the influence of the childhood places on himself despite the length of the time distance which separated him from these places, knowing that he wrote this biography in 1993, and he was then living in Baghdad the stage of which was connected with another biography which came to carry the title " The Street Of The Princesses."

Thus the researcher in the manifestations of the place in the above-mentioned biography of Jabra can see Bethlehem in the period of the 1920s and the 1930s of the past century , whereby it is manifested in its neighborhoods, streets, churches, monasteries and cottages. He can also have a glimpse of Jerusalem and some of its entrances and gates. All of this is in the context of specifying his relationship with this places and their effect on his consciousness.

Perhaps the presence of Bethlehem in his biography is connected with his feeling of prestige, whereby he says:" Bethlehem which joins in its bends the cradle of Christ makes its natives feel prestigious , either because of this or because the faith of others in it."

Also the presence of Jerusalem with some of its components and neighborhoods is a presence of a city having a status in himself, whereby no any other city has replaced it. For Jerusalem is the title of his homeland which remained carved in his memory. This was expressed by the man of letters and novelist Abdul-rahman Muneef Al-Razzaz in his introducing of the book "The First Well." He says: " Jabra since he had arrived in Iraq used to say in a sonorous voice that Iraq is an extension of the homeland in which he believes and which he loves but it is not an alternative for Palestine, the land of olive trees."[4](jabra,2007,8)

Keyeords: **The Manifestations Of Place**, **Role In** ,**The First Well**.

أهمية البحث:

تبرز أهمية البحث في حرصه على الوقوف على المكان في سيرة جبرا " البئر الأولى " وانعكاسه على وعي الكاتب، ولعل ذلك يفيد الدارسين في الوقوف على انعكاس المكان على أعمال جبرا الروائية، علما أن جبرا رأى أن قراءة سيرته من شأنها أن تسهم فهم أعماله الروائية، وقد اقتبس في استهلال سيرته مقولة الشاعر الإنجليزي (ويليام وردز ورث) " الطفل هو والد الأب " ؛ وهذا اعتراف صريح أن سيرته في مرحلة الطفولة هي منبع أعماله

.

الإبداعية، كما أعلن ذلك صراحة حين قال: " **وجدت أنني عبر أكثر من أربعين سنة من الكتابة، استعرت العديد منها (أحداث الطفولة) في مقالاتي وقصصي القصيرة وبخاصة في رواياتي** "[5].(**جبرا، 2009م، 5)**

أهداف البحث:

ينطلق البحث من أهداف عدة أبرزها، سعيه إلى الوقوف على تجليات المكان في سيرة البئر الأولى، وتحديد دور المكان في تشكيل وعيه الذي انعكس على أعماله الإبداعية، من هنا، يمكن للباحث أن يحدد أبرز الأهداف التي يسعى لتحقيقها في بحثه:

1. مفهوم المكان وصورته كما عبر عنها جبرا في سيرة البئر الأولى.
2. أبرز الأمكنة، وأكثرها حضورا في سيرة البئر الأولى.
3. دور المكان في بناء السيرة الذاتية بوصفه أهم مقوماتها وعناصرها.
4. دور المكان في تشكيل الوعي لدى جبرا إبراهيم جبرا.

منهج البحث:

يعتمد الباحث في بحثه المنهج الوصفي التحليلي، لما لهذا المنهج من دور تتبع الإشارات واستنطاق النصوص وتحليل المضمون.

أسئلة البحث:

يقوم البحث في بنائه على الإجابة عن سؤالين رئيسيين، هما:

1. كيف بدت صورة المكان في سيرة" البئر الأولى "؟
2. ما هي أكثر الأماكن حضورا في سيرة البئر الأولى؟
3. ما دور الأمكنة في سيرة البئر الأولى في تشكيل الوعي لدى جبرا إبراهيم جبرا؟

أقسام البحث:

يقسم الباحث دراسته إلى ثلاثة محاور رئيسة:

المحور الأول: البئر الأولى: قراءة في العنوان

المحور الثاني: تجليات المكان ودوره في تشكيل الوعي

ـ صورة بيت لحم

ـ صورة القدس

الدراسات السابقة:

دراسة فاضل عبود التميمي(2017) " البئر الأولى " سيرة جبرا إبراهيم جبرا قراءة في العتبات الخارجية، صادرة في مجلة رؤى فكرية سنة ـ مخبر الدراسات اللغوية والأدبية ـ جامعة أسواق هوراس.

تتناول الدراسة العتبات الخارجية بالاعتماد على المنهج السيميائي، حيث يبحث التميمي في صورة الغلاف والعنوان والإهداء، والمستهل، والمقدمة، ويحاول استنطاقها، والكشف عن دورها في التعبير عن الأفكار والقضايا التي يتناولها جبرا في سيرته الذاتية.

ـــ دراسة خديجة زعتر(2009) " خطاب الهوامش في سيرة جبرا إبراهيم جبرا الذاتية (البئر الأولى ــ شارع الأميرات) ؛ وهي دراسة منشورة في مجلة إنسانيات، في عددها (43).

إذ، تتناول الباحثة هوامش السيرة لدى جبرا ؛ حيث بحثت في اعتماد الكاتب على الهوامش بشكل لافت ؛ فجبرا إبراهيم جبرا اتخذ من الهوامش فضاء رحبا يعزز ما جاء في المتن في المؤلفين المذكورين، وقد بدت الهوامش بحسب الباحثة فضاء للشروح والتعليقات، والمعلومات الهامة وطغت عليه الذكريات وتداعياتها.

ـــ دراسة خليل شكري هياس (2001) سيرة جبرا الذاتية في(البئر الأولى وشارع الأميرات)، صادرة عن منشورات اتحاد الكتاب العرب في دمشق.

يتناول الباحث في دراسته سمات النص السيرذاتي والقوانين التي تحكمه، والعناصر المنتمية لداخل النص السيرذاتي، وتطابق المؤلف والسارد والشخصية المركزية، والميثاق السير ذاتي ؛ إضافة للعناصر الموجهة للنص المعروفة بالعتبات الخارجية ؛ كالعنوان الخارجي، وصورة الغلاف، والعنوانات الداخلية، والإهداء، والاستهلال، والمقدمة، ودورها في صياغة فكر الكاتب والتعبير عن رؤيته.

وتنماز هذه الدراسة عن الدراسات السابقة في كونها تتناول سيرة جبرا " البئر الأولى "كونها سيرة مكان ؛ حيث يحاول الباحث الكشف عن دور المكان في تشكيل وعي الكاتب، وأثره في تكوينه الشخصي والنفسي و والفكري. وقد تناولت الدراسة مدينتي القدس وبيت لحم بوصفهما فضاء مكانيا احتوى حياة الكاتب الأولى، التي سبقت حياته الأخرى التي عبر عنها في سيرته الثانية المعنونة في " شارع الأميرات ".

تجليات المكان ودوره في تشكيل الوعي لدى جبرا في سيرة البئر الأولى

يعد المكان مقوما هاما في بناء الأعمال السردية بصورة عامة، والسيرة الذاتية بصورة خاصة ؛ وإن الباحث في حضور المكان في سيرة" البئر الأولى "، يجد أن جبرا لم يقصده لذاته ولم يقدمه جامدا أو مجردا بقدر ما حاول أن يقدمه بوصفه وعاء أسهم في تشكيل وعيه وفتح الآفاق أمامه، وإذا كانت سيرة البئر الأولى في ظاهرها سيرة شخصية فإن المكان بدا عاملا هاما في تكوين هذه الشخصية ومؤثرا فيها ؛ لذا فإن الباحث في شخصية جبرا والعوامل المشكلة لها لا بد أن يكشف عن دور المكان في بنيتها النفسية والاجتماعية والثقافية.

وعليه يسعى الباحث بدراسة المكان بفرعيه ؛ العام والخاص في سيرة جبرا والكشف عن دوره في تشكيل وعيه، عبر محورين اثنين ؛ هما:

المحور الأول: البئر الأولى: قراءة في العنوان

المحور الثاني: تجليات المكان ودوره في تشكيل الوعي

المحور الأول:البئر الأولى: قراءة في العنوان

المكان هو الفضاء الجغرافي الذي يعيش فيه الإنسان، وتبدو علاقة الإنسان بالمكان علاقة وجود ؛فعلى مكوناته يتغذى وعيه، وفي أرجائه يغزل آماله وأحلامه، وبين جنباته يعيش أوجاعه وآلامه، من هنا، فإن للمكان دورا في تشكيل وعي الشخصية ؛ لأنه مهدها الأول الذي يحتوي المحيط الذي يغذيها بأفكاره[6].(**هويدي،2007م، 150**)

والمكان فيالأعمال الإبداعية بعامة والسيرة الذاتية بخاصة ليس تضاريسَ صماء، ولا بنايات جامدة، إنما هو موطن البدايات ومأوى الطفولة، الذي يجعل كثير من المبدعين يؤنسنونه ويمنحونه صفات القداسة والجمال والطهر، ويعبرون عن تفاعلهم مع مكوناته، من هنا، فإن حضور المكان في العمل الإبداعي تجسيد لحضوره في ذاكرة المبدع وانبعاثه في نفسه، واعتراف معلن أو مبطن بدوره في تشكيل وعيه.

وفي الوقوف على تجليات المكان في سيرة البئر الأولى تناول للمكان بوصفه مقوما رئيسا في بناء سيرته، وقد ارتقى المكان في أعمال جبرا الإبداعية بعامة وسيرة " البئر الأولى " بخاصة إلى " حالة من الهيام الجمالي والديني المرتبط بأسطورة المسيح"[7].(**أبو ندى،د،ت،47**)

ومقارنة مع غيرها من السير التي جاءت في عنوانها تحمل دلالة الحداث كسيرة رحلة جبلية رحلة صعبة لفدوى طوقان، وسيرة غربة الراعي لإحسان عباس فإن الباحث في سيرة " البئر الأولى " يجد أنها ـ في بنيتها ـ سيرة مكان بالتوازي مع كونها سيرة ذاتية تتصل بالذات المبدعة،، حيث جاءت تعبر عن المكان بوصفه مسرحا للطفولة، إذ ظل حاضرا في ذاكرة جبرا على الرغم من وجوده في بغداد التي خصها بسيرة " شارع الأميرات " حيث بدت من عنوانها أيضا سيرة مكان؛ ويرى عبدالرحمن منيف في تقديمه لسيرة " شارع الأميرات " **أن جبرا منذ أن وصل إلى العراق كان يقول بجهير الصوت أن العراق امتداد للوطن الذي يحبه ويؤمن به لكنه ليس بديلا عن فلسطين، أرض الزيتون** " [8]،(**جبرا،2007م،8**)فالمتتبع لعنوان السيرة " **البئر الأولى** " يجد أنه عنوان دال على المكان الذي يأخذ صفة الأولى، وهو بهذه الصفة يذكرنا ببيت أبي تمام، الذي عبر فيه عن الحنين للمكان الأول:

نقّل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحب إلا للحبيب الأول

.

كم منزلٍ في الأرض يألفه الفتى وحنينه أبدا لأول منزل (التبريزي،251،1951).

فهل حملت (الأولى) دلالة حنين جبرا لفلسطين بعامة وبيت لحم بخاصة بوصفها مسرحالطفولته؟ وهل دلت هذه الصفة على المرتبة التي حازتها هذه المرحلة من حياة جبرا؟ فالأولى هي مقابل للأخرى التي عبر عنها في " شارع الأميرات ".

وليس غريبا أن تأخذ البئر صفة(الأولى)لأنها عبرت عن مرحلة الطفولة التي ظلت حاضرة في الذاكرة، وكان للأمكنة وما تتضمنه من عناصر دور في تشكيل وعيها، ويتضح ذلك حين نجده يربط بين الذات والمحيط ويرى فيهما موضوعين متبادلين ويحاول أن يفهم التراث لتشكيل الخيوط التي تربط الذات بالموضوع، الإنسان بالمجتمع، الطفل بأسرته والأماكن التي وجد نفسه جزءا منها [9]،(الشوملي،2004م،249) يقول في سياق التعبير عن الأسباب المتصلة بكتابة سيرته:"**آثرت الاستمرار باستقصاء كينونة واحدة، تتنامى مع الأيام وعيا ومعرفة وعاطفة، تحيا براءتها وتتشبث بها، والبراءة تزايلها، وهي طبعا جزء من محيطها، إنها بعض تلك البيوت والأشجار والوديان والتلال، وبعض الشموس والأمطار والوجوه، والأصوات التي تحيا بها، وبها تكتشف القيم والأخلاق، وتكتشف الجمال والقبح،والفرح والبؤس جميعا** "[10].(جبرا،2007م،10)

وذهب بعض النقاد مذهبا رأوا فيه أن العنوان في " **البئر الأولى**" يحمل دلالات سيكولوجية وواقعية ودينية موروثة ؛ فعلى الصعيد السيكولوجي يرى جبرا أن التجارب الأولى في عالم الطفل هي المسؤولة عن تشكيل شخصية الفرد ووسمها بسمات معينة [11] (الشيخ،2005م،137) فالبئر الأولى ـــ بحسب جبرا ـــ هي:" **بئر الطفولة.. التي تجمعت فيها أولى التجارب والرؤى والأصوات، أولى الأفراح والأحزان والأشواق والمخاوف، التي جعلت تنهمر على الطفل، فأخذ إدراكه يتزايد ووعيه يتصاعد** " [12]. (جبرا،2007م،15)

وعلى مستوى الدلالة الواقعية فإن "**البئر الأولى**" تتصل بثقافة الناس في القرى الفلسطينية، وهنا يصبح البئر رافدا من الروافد التي تمد البيوت بالحياة، حيث كان الناس عند انتقالهم من بيت لآخر يتساءلون أول ما يتساءلون [13] (المصدر نفسه،138): " **هل توجد بئر في حوش الدار؟ هل هي عميقة؟ وفي حالة جيدة؟ هل ماؤها طيّب؟ أم أنها لم تنزح من طينها منذ سنين؟** " (**المصدر نفسه،13**) و" البئر الأولى " هي رافد يمد حياته الأخرى بالحياة، وقد اعترف بذلك حين استعار مقولة الشاعر الإنجليزي (وردز ورث): إن الطفل هو والد الرجل (**المصدر نفسه،12**) حيث يعلن صراحة أثر حياته في بيت لحم والقدس على أعماله الأدبية بعامة ؛ لذا فإن الحكم على أعماله الإبداعية لا بد وأن يكون مسبوقا بقراءة سيرة البئر الأولى.

أما على مستوى الدلالة الدينية فإن العنوان مستلهم من بئر نبي الله يوسف الذي بدا نقطة انطلاق نحو العزة حيث أصبح عزيز مصر بعد أن ألقاه إخوته في البئر (**المصدر نفسه،138**) ولعل ذلك يتصل بإحساس جبرا بالمكانة التي وصل إليها جبرا على المستوى الإبداعي والأدبي.

وتحمل البئر دلالة الذات الناضجة العارفة المتبصرة التي ارتوت بسحر الكلمات، وتذوقت اللغة وتفاعلت مع جمالياتها ؛ وعليه نجده في صفحة الإهداء يهدي سيرته " **إلى الذين لقنوني سحر الكلمة فملأت بئري من عذب مياههم** " (**جبرا،2007م،5**) وهنا، يقر جبرا بفضل معلميه في مرحلة الطفولة.

ويرى إحسان الديك أن البئر في فكر الإنسان المثيوديني هي مستودع الماء/ والحياة، وهي تدل على الخفاء والاختباء والستر (**الديك، 2009م، 33**) من هنا، عرفت الحفرة بالبؤرة وبِئرة وبئيرة لأنها تخبّئ وتدخر ما بداخلها، (ابن منظور، د.ت، باب الراء) وهذا يفسر ما حملته البئر الأولى من كشف المخبوء من حياة جبرا التي ارتبطت بمسقط رأسه بيت لحم.

المحور الثاني: تجليات المكان ودوره في تشكيل الوعي

إن المتتبع لسيرة "البئر الأولى" يجد أن ذاكرة جبرا تحمل بيت لحم، بأحيائها وشوارعها وبيوتها ودكاكينها ومدارسها وكنائسها التي استوقفته برسوماتها ونقوشها وطقوسها، وإضافة لأماكن أخرى كان له حكايات فيها ومنها وبها ؛ كتل خريطون المعروف بالفريديس، ولعل ذلك يعكس ما ذهب إليه جبرا حين قال: " **إن بيت لحم التي تضم في حناياها مهد المسيح تجعل أبناءها يشعرون بالامتياز، إما بسبب ذلك، أو بسبب إيمان الآخرين به ".** **(جبرا،2007م، 34)**

وذاكرة جبرا لم تقف عند حمل بيت لحم وحدها بل حفظت ووثقت القدس بأحيائها وأبوابها وجورة العناب، ومدرسة الرشيدية التي تعلم فيها.

وإن حضور بيت لحم والقدس في سيرته لم يكن حضورا جامدا، بل حضور تفاعلي يسهم في تشكيل وعيه، فالوعي يكون بإدراك المرء لذاته وأحواله وأفعاله ومحيطه إدراكا مباشرا،ولا شك أن جبرا يذكر أماكن كثيرة، لكن الباحث سيقف على الأمكنة الأكثر حضورا في سيرته، وتلك التي تفاعل معها و بدت في حضورها ذات تأثير على وعيه، ومعلوم أنه بذلك يستحضر الأمكنة التي كانت مسرحا لطفولته، وهنا، تظهر بيت لحم والقدس بوصفهما المدينتين اللتين ظلتا حاضرتين على امتداد سيرته ؛لذا يتناول الباحث صورة المكان في السيرة من منطلق ارتباطه بكلتا المدينتين وعيشه فيهما وتفاعله مع مكوناتهما على مستوى المكان.

وللوقوف على تجليات المكان في سيرته يتناول الباحث المكان في حدوده الجغرافية التي عبر عنها جبرا في سيرته ؛ لذا يجري البحث في تجليات المكان ودوره على وعي جبرا في اتجاهين ؛ صورة بيت لحم، وصورة القدس كما حفظتهما ذاكرة الكاتب.

ـ صورة بيت لحم:

تظهر بيت لحم في سيرة جبرا في اتجاهين ؛ تارة يقدمها في صورة عامة، وتارة أخرى يقدمها عبر رسم صورة من بعض مكوناتها، واللافت أنه عندما يرسم صورتها بصورة عامة نجده يقدمها بلغة شعرية، وتظهر كلوحة فنية نابضة بالحياة، حيث تتماهى فيها الألوان والأشكال والروائح والحركة وتنبعث في ذاكرته كفردوس مفقود، واللافت أن حضورها في سيرته يتصل بالأعياد والربيع، يقول في وصف معالمها:

" وعيد القيامة يأتي دائما مع الربيع، تخضرّ الحواكير المهملة، وتنثر فيها الزهور من كل شكل ولون، هناك الحنون الأصفر، والحنون الأزرق، والحنون البنفسجي، وهناك ذلك الحنون الأحمر القاني، بلون الدم،: شقائق النعمان، ترفع رؤوسها الشقائق للشمس، والندى يتلألأ من وريقاتها، من بين الحجارة، والأشواك، والأعشاب الغريبة، وهي ترفع رؤوسها مختالة، حتى عند قواعد الجدران التي تنتشر عليها الصبّار بعتوه الشائك، مطلقا زهراته الصفراء الرقيقة قبل أن تتحول إلى فاكهة مصفّحة بالشوك، في ظلال أشجار التوت، والتفاح، والمشمش، واللوز والرمان، تنبثق الشقائق كالجروح الضاحكة من التربة الحمراء وبين زيتونات وادي الجمل على مد البصر، بين الحنون الأصفر والأزرق والبنفسجي، تنقّط الشقائق المشهد المترامي بدم النعمان، وفي حقول القمح والشعير، طوال الطريق الممتد إلى بيت ساحور، وفي الأراضي الممتدة حولها، تتمايل الشقائق مع السنابل الخضراء، وتتلقى أجنحة آلاف العصافير وهي تهبط عليها من السماء الزرقاء، لتعود فتحلق وتغيب في الفضاءات التي لا تحدها إلا الجبال الزرقاء ".(جبرا،2007م، 60)

وفي استذكاره لصورة بيت لحم كما حفظتها ذاكرته يعبر عن تأثير المشاهد التي استحضرتها على نفسه، يقول: " **وفي العشيات تعبر الفضاءات اللازوردية رفوف السنونو، وقد وفدت من جديد إلى الأرض التي تحبها.... عشيات الربيع في بيت لحم، أينما كنا نلعب، أو نغني، أو نروي الحكايات، كانت تصخب بصيحات السنونو، وهي تعبث وتلهو وتدور، تسف على أسطح البيوت ثم تعلو في السماوات الرحاب، نتابعها وهي تغير وتنعطف وتستدير، ثم تغير وجهة طيرانها، لأسباب لا نعرفها، ولا يصطدم واحد من بآخر، وتملأ الأجواء فرحا وبهجة، نتلقى فعلها بأنفسنا دونما وعي، فيشتد صخبنا، ونمعن في الركض والقفز، ونرفع أصواتنا في الغناء والصياح، وقد أستلقي لوحدي على الأرض المعشوشبة، لألاحق بعيني حركة أسراب السنونو، وهي تتقاذف بين غيمات السماء المتباعدة.."(جبرا، 2007م، 61)**

وفي سياق استحضار بيت لحم يستذكر جبرا في سيرته أمكنة كثيرة، والمتتبع لهذه الأمكنة يجد أن بعضها كانت ذا حضور عارض لكن كثيرا منها اتصل بمواقف وأحداث ما زالت حاضرة في ذاكرته، **كالبيت** الذي يقطن فيه ؛ الذي انتبه أن الناس يطلقون عليه (خانا) ؛ والعلية التي يؤمها كثير من الرجال والنساء صباح الأحد التي عرف أنها كنيسة (بيت الله)، وكانت رائحة طيبها وعطرها تعبق على بيته. **(المصدر نفسه،17)**

وقد بدت **الكنيسة** أولى الأمكنة التي تفتح عليها وعيه، ففي سيرته يستحضر اللحظات الأولى التي دخل فيها إلى الكنيسة، ويبين أثرها على نفسه حيث بدا مستمتعا بما يرى ويسمع، يقول: " **أصعدني أبي مع أخي إلى الكنيسة مبكرا، وأوقفني في أحد صفي الصبية المرتلين، ومع أنني لم أكن أعرف ما الذي يرتلون بالسريانية، فقد جعلت أتمتع بما أسمع، وأحاول أن أرفع صوتي معهم كلما رفعوا أصواتهم، كنت أرقب الولد حامل المبخرة، وهو يدنو بها من أبونا حنا، فيأخذ أبونا بملعقة صغيرة قليلا من البخور من طاسة نحاسية في يد الولد، ويلقمها جمرات المبخرة، ويرسم عليها إشارة الصليب، ثم يدور الولد بين أرجاء الهيكل والمصلين، ويهز المبخرة عليهم بإيقاع منتظم، وهي تطلق سحب العطر** ".(جبرا،**2007م،21**)

ويذكر جبرا في سيرته **ساحة المدرسة** التي التحق بها، حيث كانت تحتوي على شجرة صنوبر كبيرة، وذاكرته ما زالت تحتفظ بمغامراته وهواياته الطفولية، التي ستتكرر مع أشجار أخرى في حاكورة بيته،إذ يبدو أن الصعود إلى الأشجار العالية إحدى الهوايات التي ارتبطت بطفولته:" **قفزت على الجذع المنحني، ومنه تسلقت إلى الأغصان العليا، ولحق بي جماعة من الصبية، وما كدنا نلعب قليلا حتى رأينا المعلم يدق جرسه مرة أخرى** ".(**المصدر نفسه،24**)

وقد مثلت **المدرسة** بطلابها ومعلميها، وكتبها وأجوائها مهربا وملاذا ؛ حيث أتاحت له أن يتعرف إلى أجواء جديدة عندما أخذ يستطيع القراءة، وقرأ كتبا كان لها أثر في تشكيل وعيه، ككتاب بحر الآداب الذي يحوي الكثير من القصص والحكايات على لسان الطير والحيوان، وروبنسون كروزو، وكتاب سير الأبطال، الذي يتضمن مغامرات أبطال الإغريق، وتغريبة بني هلال، وسيرة عنترة بن شداد، والأهم من ذلك كله ألف ليلة وليلة. (**المصدر نفسه، ص136، 137، 38، 102، 103، 141**)

وعلى الرغم من أن جبرا عاش في غير **دار**، إلا أن الصورة للدور التي عاش فيها تكاد تكون واحدة، وقد حرص على وصف الدار (الخشاشي) التي تفتح وعيه عليها، وهي من الأماكن التي ارتبطت بتكوينه الروحي،الشيخ،2005م،154) وقد بدت البساطة والريفية والفقر ملامح ظاهرة في تكوينها،يقول: " **كانت دارنا تتكون من غرفة صغيرة مبنية من الحجر الخشن، تتصل بها حاكورة فيها شجرتا رمان وشجرة لوز أو شجرتان، وتينة كبيرة على مقربة من الخشية المبنية أيضا من حجر خشن، وأمامها حوش مبلط بالحجارة، تتوسطه خرزة البئر، ويتصل بحاكورة أخرى محاطة بأشجار الرمان، وبين مأونا والخشية، التي هي مأوى الخراف والدجاج،ممشى يفصل أيضا بين الحاكورتين، ويمتد من بوابة عتيقة اختلط فيها الصفيح الصدئ بالخشب المتآكل، وتمتد فوق جزء من الممشى فروع دالية عتيقة، وكانت غرفتنا وخشيتنا كلتاهما مسقوفتين بالأحطاب، وجذوع الأشجار وأغصانها...** ".(جبرا،**2007م،32**)

و تأخذ**حاكورتا الدار (الخشاشي)**حيزا من مخيلة جبرا، فهما يميزان الدار التي عاش فيها، وله فيهما ذكريات لم تمحها الأيام، فيهما تعلم الحروف، بدأ يقرأ الكلمات، يقول: " **كانت مزية "الخشاشي " (كما كنا نسمي بيتنا**

ذاك) وجود الحاكورتين اللتين تحويان عدة أشجار رمان، ولوز، وتينة كبيرة، ودالية تحاول عبثا الانتشار فوق المدخل المؤدي إلى الدار، فيهما قرأت أولى حروف الأبجدية، فيهما دهشت حين رأيت أمي عصر يوم بارد تلف كتفيها بحرام لترافق أبي إلى مستشفى راهبات المحبة ". (المصدر نفسه، 44).

وقد ارتبطت الدار (الخشاشي) ببعض ذكريات الطفولة التي تتصل بقسوة الظروف التي عاشها جبرا في هذه الدار، حيث يستذكر يوما من أيام الشتاء القاسية بعد أن تساقطت الثلوج ذات ليلة وشعر بالبرد، يقول: " **وفي بيتنا ذاك وعيت لأول مرة قسوة الطبيعة ورعبها بعد أن أفقت على برد شديد ".(المصدر نفسه، 45)**

وتظهر الحاكورتان المتصلتان بالدار (الخشاشي) مصدر إلهامه ومسرح هواياته ؛ ففيهما غنى أولى أغنياته، ونظم أولى أشعاره، وأخذ يعي طبائع البشر، ولا يجد ما يبرر عصيانهم أولياءهم ورجال الدين في مجتمعهم: "**في الحاكورتين غنيت أولى الأغنيات، وأنشدت أولى الأناشيد، التي بدأت أعي بعض معانيها،... وفيهما بدأت أعي الفوارق بين طبائع الناس وتصرفاتهم، وأعجب أنهم كيف لا يطيعون تعاليم آبائهم، ولا مواعظ قسسهم ورهبانهم.(المصدر نفسه، 45)**

وفي الحاكورتين جمعت أول مرة عددا من رفقتي، لنمثل مسرحية من المسرحيات التي رأيناها في دير أبونا أنطون).(المصدر نفسه،45) (

وباتت **القبة** المعروفة بـــ(قبة راحيل) واحدة من الأمكنة التي حملتها ذاكرته، حيث ارتبط وعيه فيها بذكريات وحكايات جعلته يرى فيها بوابة المجهول وحدا يفصل بين عالمين متناقضين في بنيتهما الجغرافية والسياسية والنفسية والثقافية، ولعله يعترض على تلك الحدود التي نرسمها أو يرسمها الآخر بين شقي الوطن المتمثلين ببيت لحم والقدس، كما يعرّض بصورة غير مباشرة بالرواية الدينية اليهودية التي تتصل بسيطرتهم على مكان بدوا غرباء فيه، يقول: " **القبة معلم من معالم بيت لحم كانت لي الحد الفاصل بين المعلوم والمجهول، فما دمت أنا في هذه الناحية منها، فأنا ضمن تخوم البلدة التي أعرفها وتعرفني.أما إذا تخطيتها إلى الطرف الآخر، حيث تمتد الطريق إلى القدس، فأنا مجازف في عالم كله غوامض وأسرار، وعلى مقربة من المكان حجر كتب عليه "حدود بلدية بيت لحم " وهو يؤكد لي حسّي بالخط الفاصل بين الإلفة والغربة،... والاسم الكامل لهذا المبنى " قبة راحيل "، قال أخي إن راحيل هي أم يوسف الحسن، وإذ كانت على سفر مع زوجها يعقوب، ماتت في الطريق ودفنت هناك، وتركت طفلا ابن يومين، فسمي بنيامين، كنا أحيانا نرى رجالا غريبي الأشكال، يلبسون معاطف سوداء طويلة، وقبعات فرو أو برانيط سوداء، لهم وجوه جهمة وسوالف لولبية مخيفة ولحى طويلة، نسميهم الحاخامات، يأتون إلى القبة بالسيارات، ونسمع لهم ولولة غريبة إذ يصلّون في داخلها، ولا نكاد نقترب من النافذتين حتى نتراجع عنهما، وفينا شيء من خوف غامض، فأمهاتنا يوصيننا بالحذر من أولئك اليهود، ويقلن إنهم يسرقون الأطفال في أعيادهم، ليذبحوهم ويمزجوا دماءهم بعجين خبزهم الفطير،**

وقد أدهشـــنا أننا رأيناهم عدة مرات، ولم يجرؤ واحد منهم على مد يده إلينا، ونحن بالطبع لم نهيئ لهم المجال لذلك بالاقتراب منهم أكثر مما ينبغي ".(المصدر نفسه،89)

ويعد **البحر** واحدا من الأمكنة المتخيلة التي اســتحوذت على نفس الطفل، حيث تمنى أن يراه واقعا، بعد أن رآه صــورا جامدة ؛ وبروح الطفل راح وأصــدقاءه يســتعيض عن البحر بمفهومه الواقعي ببحر آخر حفروه في إحدى الحواكير، يقول: " **غير أن خيالنا كان يتوق إلى ما هو أبعد وأصعب، لم أكن قد رأيت البحر قط، إلا في أفلام الدير، وكانت فكرة المياه الفسـيحة المتلاطمة تسـحرني، وبيت لحم ليس فيها نهر ولا جدول ماء، فيما عدا عين القناة، كما كانت تسمى، وبرك سليمان كنت أسمع عنها، ولكنها بعيدة، والدخول إليها محظور، ولم يكن لي ولأصــدقائي بد،إذا أردنا البحر من أن نصــنع بحرا... وصــنع البحر شــغلنا كثيرا، لأننا قررنا أن نحفر في إحدى الحواكير بحرا تقلع فيه المراكب، فجاء كل واحد منا بفأس، أو قدّوم، وأخذنا نحفر ".(المصـدر نفسـه، 74)**

ـ صورة القدس:

ارتبطت صــورة القدس في وعي جبرا بوصــفها مكانا مقدســا يحظى بالعناية الإلهية، وهو يؤمن أنها عصــية عن التغييب، وأن نورها ســيبقى ســاطعا رغم محاولات النيل من مكانتها، **يقول: "كنا نرى في كل ليلة في الناحية الشمالية، وهجاً ينتشر على امتداد من الأفق وراء الجبل، ولما سألت أخي يوسف عن ذلك الضياء الغريب، قال دون تردد: إنه ضياء مدينة القدس، ويريد الله لها أن تتوهج في وسط الظلام الذي يملأ الدنيا ". (المصدر نفسه، 99)**

وقد انعكســت نظرته الدينية للقدس على أعماله الروائية ؛ حيث ربط فيها جبرا بين المدينة والتضــحية والخلاص، متأثرا بنشــأته الدينية قرب كنائس بيت لحم والقدس وبما تحمله المدينة في الموروث المســيحي من تقديس ومكانة رفيعة.(**أبو ندى، د،ت، 61)**

وخلع جبرا على القدس صفة الروعة، وقد عبر عن مشاعر الدهشة التي انتابته في أول رحلة له إليها، حيث رآها مدينة ذات مكونات عجائبية تنبض بالحياة، يقول: " **قمت بأول رحلة لي إلى المدينة الرائعة القدس ورأيت باب الخليل لأول مرة، وقد ازدحم البشر والدواب، ونزلنا في السويقة، وأنا لا أكاد أصدق أن في الدنيا حوانيت وأناسا بهذه الكثرة وهذا الصخب، سرنا في المعقودة الضيقة، وكلما انعطفنا تغيرت المرئيات شكلا، وتغيرت الأصوات ".(جبرا،2009م،49)**

وفي أول زيارة له للقدس بدا **دير مار إلياس** في القدس من الأماكن التي أثارت دهشته، فما زال يستحضر روعة جمال الكنيسة فيه، وما زالت ذاكرته تستذكر أصوات المرتلين والشمامسة "**في الدير أدهشتني الكنيسة بهيكلها المنقوش بالزخارف المذهبة، وشمعداناتها الضــخمة، وقناديلها المتلألئة، ولوحاتها الثلاث أو الأربع الكبيرة المعلقة عاليا على الجدران، التي كانت عيناي ترتفعان باتجاهها مفتونتين، شئت أم أبيت، وشاركت في خدمة**

القداس، ولو أنني ضعت تماما في حشد المرتلين والشمامسة، والرهبان الذين كانوا أبرع بكثير مني ومن رفاقي في الترتيل والدعاء ". (المصدر نفسه،104)

ويعد **حي جورة العناب و قلعة النبي داود وباب الخليل ومئذنة جامع القلعة** من المعالم المقدسية التي حفظتها ذاكرة جبرا، وقد راح بريشته يرسم هذه المعالم على أولى لوحاته الفنية بعد سنوات من عيشه في القدس،(**المصدر نفسه،182**) وتبدو بجمالها قد شكلت مصدر إلهام له.

وتشكل القدس بعامة ومدرسة الرشيدية بخاصة الواحة الثقافية التي أتاحت لجبرا إبراهيم جبرا فرصة اكتساب العلم والمعرفة، حيث تلقى فيها العلوم على يد نخبة من المعلمين المتفوقين ؛ أمثال إبراهيم طوقان الذي لفت نظره إلى شعر أحمد شوقي، وعبدالكريم الكرمي (أبو سلمى)، وأستاذه محمد العدناني الذي كان له تأثيرا واضحا على جبرا في تلك المرحلة. **(عبدالرازق،2004م،6)**

الخاتمة:

وهكذا، فقد سعى البحث إلى الوقوف على تجليات المكان ودوره في تشكيل الوعي لدى جبرا في سيرة " البئر الأولى" من منطلق كون هذه السيرة سيرة مكان بالتوازي مع كونها سيرة ذاتية، وقد بدا لبيت لحم والقدس وما تحتويانه من أديرة وكنائس وأحياء ومدارس أثر على وعي جبرا، وفي سيرته لم يقدم هذه الأمكنة بصورة جامدة، إنما عبر عن إحساسه بها، وحاول الكشف عن تأثره بمعطياتها، وقد بدت ذات تأثير في شخصيته على المستويات النفسية والاجتماعية والثقافية.

كل ذلك يجعل الباحث يرى أن البحث في أعمال جبرا الإبداعية يجب أن ينطلق من الوقوف على تأثير الأمكنة الواردة في سيرته على شخصيته، فالأعمال الإبداعية مهما تعددت في عناوينها لا بد أن تربطها خيوط تتصل بمبدعها.

النتائج والتوصيات:

لقد توصل الباحث إلى مجموعة من التوصيات والنتائج، يمكن تحديد أبرزها في الآتية:

1.تعد سيرة " البئر الأولى " سيرة مكان بالتوازي مع كونها سيرة ذاتية تتبع مرحلة الطفولة من حياة الأديب والفنان جبرا إبراهيم جبرا.

2.إن حضور المكان في سيرة البئر الأولى لم يكن حضورا حرفيا جامدا، بل جاء في سياق تفاعل تبادلي مع الكاتب والأديب.

3.إن لبيت لحم والقدس وما تحتويانه من كنائس وأديرة وأحياء وبيوت أثرا في تشكيل وعي جبرا.

4. إن القارئ لأعمال جبرا الإبداعية الروائية يجد أن المكان فيها ينعكس من المكان في سيرته الذاتية.

5.إن المكان في سيرة " البئر الأولى " هو مسرح الطفولة وحاضنتها، لكن المكان في " شارع الأميرات " هو مسرح الشباب وحاضنته.

المصادر والمراجع:

1. التبريزي، الخطيب: **شرح ديوان أبي تمام**، تحقيق محمد عبده، دار المعارف، القاهرة، 1951م.

2.جبرا، إبراهيم جبرا: **شارع الأميرات، فصول من سيرة ذاتية تقديم عبدالرحمن منيف**، دار الآداب، بيروت، ط1، 2007م.

3.جبرا، إبراهيم جبرا: **البئر الأولى فصول من سيرة ذاتية**، دار الآداب بيروت، ط1، 2009م ص10

4. الديك، إحسان: البئر بوابة العالم السفلي في الشعر الجاهلي، دراسات، العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد36، (ملحق)، 2009م.

5. الشوملي، مجدي:**كنز التراث في ذاكرة جبرا إبراهيم جبرا من خلال ما ورد في " البئر الأولى "**، مؤتمر جبرا إبراهيم جبرا، جامعة بيت لحم،2004م.

6.الشيخ، خليل:**السيرة والمتخيل، قراءات في نماذج عربية معاصرة**، أزمنة للنشر والتوزيع، عمان، 2005م.

7.صالح،صلاح: **قضايا المكان الروائي في الأدب المعاصر**، دار شرقيات، القاهرة، 1997م.

8.عبد الرازق: إبراهيم عواد: **جهود جبرا إبراهيم جبرا النقدية**، رسالة دكتوراه في النقد الأدبي الحديث، كلية التربية، جامعة عين شمس،2004م.

9. ابن منظور، محمد بن مكرم الإفريقي المصري: **لسان العرب**، دار المعارف، بيروت، مج 1، ط1، (د.ت).

10. أبو ندى، وليد: **القدس في روايات جبرا إبراهيم جبرا رواية " السفينة " نموذجا**، بحث مقدم إلى المؤتمر الخامس، الجامعة الإسلامية، غز

11.هويدي، محمد عبد الحسين: **أنماط الوعي ودور المكان في تكوينها، (دراسة في رواية القلعة الخامسة)**، مجلة القادسية في الآداب والعلوم التربوية،العددان (43) المجلد 6، 2007م.